

المناظرات النحوية واللغوية

بين أئمة الحديث والأفتعال

أبو عبد الله محمد بن الحسين

لعله من المفيد أن أنبه القاريء الكريم الى أنه ليست جميع المناظرات اللغوية والنحوية ذات جدوى في تقصّي المسائل اللغوية المطروحة ، فمن خلال البحث نجد كثيراً من المناظرات قد دلت على قضايا شخصية لا تمت الى الاسلوب العلمي وخلق المناظر الجادّة بصلة .

ومن المؤسف حقاً أن تكون تلك الحالة لدى الأوائل الذين نجّتهم ، ونقتدي بمسلّكهم العلمي ، ونرغب في سماع مزيد من أخبارهم ، وما يتصل بها من قضايا اللغة والنحو . وسأشير فيما بعد - بصورة خاصة - الى ما حدث بين اليزيدي والكسائي ، أو بين الكسائي وسيويه ، وغيرهم من علماء البصرة والكوفة .

ومن هنا يتطلب البحث منّا أن تتأمّل في : معنى المناظرة ، وأسباب المناظرات ، وشخصية المناظر ، والاستعداد للمناظرة أو ارتجالها ، والمدارس

النحوية وعلاقتها بالمتناظرين ، ومكان المناظرة ، ومن تضم مجالسها من الخلفاء أو الوزراء والولاة وطلبة العلم ، ومناظرات العلماء لنظرائهم ، والاساتذة وطلابهم ، وعداوة الصنعة في تلك المناظرات ، والتريص لأخذ الثأر ، والتقد اللغوي والنحوي ، وأخيراً النظر في النتائج وأثرها في إغناء اللغة .

جاء في لسان العرب ^(١) : « والتناظر : التواضع في الأمر . ونظيرك : الذي يراوضك وتناظره ، وناظره من المناظرة ويقال : ناظرت فلاناً أي صرت نظيراً له في المخاطبة . وناظرت فلاناً بفلان أي جعلته نظيراً له » .
يعد العراق أول بلد عربي وضع أول لبنة في أساس علم النحو ، وتمهده بالعناية والرعاية حتى نضج ولم يحترق . ولئن كان للعراق الفضل الأول بين أقطار العربية في نشأته ، فلبصرة النصيب الأوفى بين مدن العراق العلمية الأخرى في تلك النشأة ، فقد تطاولت بعلمائها في هذا المضمار قبل أن يكون للكوفيين فضل في ذلك ، إذ كانت الكوفة مشغولة بجمع مسائل لغوية أخرى تتصل بالأخبار ورواية الشعر قبل أن تتجه وجهة البصرة في هذا الميدان .

ومن المعروف أن النحو بدأ بصرياً على يد أبي الأسود الدؤلي — مع اختلاف في الروايات — ونضج بصرياً — كوفياً — ونحن إذ نؤرخ المناظرات النحوية يلزمنا أن نقف مع رجال الطور الثاني ، بعد أن تنبعت الكوفة الى الدوممي الذي أحدثه عيسى بن عمر ، وعبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي ، وأبو عمرو بن العلاء وغيرهم في البحث اللغوي والنحوي ، وعلمائها سادرون في جمع الأخبار والنوادر ورواية الشعر ، حتى قيَّض الله لها أبا جعفر الرؤاسي الذي عاصر الخليل بن أحمد وناظره — ومن هذا العهد بدأت

(١) انظر : لسان العرب (نظر) .

المنافسة القائمة على الجدل ، والمناقشة بين علماء المدرستين ، فشمل نشاطهم المأثور من لغة العرب ، ودراسته ، وتقويمه ، والتباهي به ، كل أمام ندرته ، فكان ما كان من أمر الخليل وجمعه للغة ، وتأليف « كتاب العين » .
كما كان يقف مقابل الخليل ، وفي مشارف الكوفة الرؤاسي استاذ الكسائي والقراء حاملاً كتابه « الفیصل » الذي لم يبخل به على الخليل حينما طلبه منه (٢) .

قال الرؤاسي : « أرسل اليّ الخليل بن أحمد يطلب كتابي ، فبعثته اليه ، فقرأه ، ووضع كتابه » .
وفي أعقاب تلك الطبقة جاءت طبقة سيبويه امام الحاجة البصريين في القرن الثاني للهجرة ورافع اسم البصرة في حينه ، يقابلها في الطرف الآخر الكسائي قاهر سيبويه ، ومفند مزاعم البصريين وآرائهم في الصرف والنحو ، متخذاً من حظوته لدى الخلفاء ببغداد دعامة يستند اليها في حربه العلمية مع البصريين ، حتى اذا اضطره الأمر التجأ الى عامة الحظمية لشد أزره ، والوقوف في وجه البصريين .

ثم جاء الأخفش البصري ، والقراء الكوفي ومن في طبقتهم يمثلان جيلاً آخر من أجيال النحو مثل الصراع بين المدرستين خير تمثيل ، فداعت الكتب ، وفشت آراؤهما بين الناس .

ومن بعد « تكاتف الفريقان على استكمال قواعده ، واستحشهما التنافس الذي جدّ بينهما ، واستحرت ناره ردهاً من الدهر ينيف على مائة سنة خرج بعدها هذا الفن تام الاصول ، كامل العناصر ، وانتهى الاجتهاد فيه ،

(٢) انظر قصة طلب الخليل لكتاب الرؤاسي في « الفهرست » لابن النديم

وحينذاك التأم عقد الفريقين في بغداد ٠٠٠ » (٣) .

ومن ثم انتقل هذا الفن الى الأندلس ، والشام ، ومصر في العهود التي ازدهرت فيها اللغة العربية بفضل علمائها الاعلام الذين أودعوا خزائن المكتبة العربية عصارة القرون المتأخرة ، وهي تعتر بهذا التاج اليوم .
وهكذا تنصارع الأجيال مروراً بالخليل والرؤاسي ، وسيويوه والكسائي .
والمازني وابن السكيت ، وانهاءً بالمبرد وثلعب .

ولعلنا لانعدو الحقيقة إذا قلنا ان المناظرات النحوية واللغوية والمجالس التي كانت تعقد من أجلها سبقتها مرحلة الحديث الخاص بالقضايا النحوية التي كانت مثار استفسار وتساؤل لدى المسلمين ، وقد نشأ النحو في ظلال الدين وتحت راية القرآن الكريم ، فكثير من قضايا الفقه عرضت أولاً في مجالس العلماء وقد رافقها بعض ما عن لهم من مسائل اللغة والنحو . كما نشأ قبل هذا علم الجدل والكلام . وقد « قامت هناك صلة شديدة بين هذه العلوم جميعاً بصورة عامة وبين علوم الفقه والنحو منها بصورة خاصة » (٤) .

لقد بدأت المناظرات هادئة جادة ، وانتهت ساخنة مفتعلة ، فبدايتها زمن الخليل والرؤاسي كانت من أجل إرساء القواعد والاصول النحوية التي تنفع الدارسين ، أما نهايتها فكانت احراز النصر بأية وسيلة كانت ، ففوز أحد الفريقين أو المتناظرين غلبة لمذهب على آخر ، وفشل المناظر اندحار مدرسة بكاملها .

ومع هذا فقد اتسم علماء هذا العصر في أغلب الأحيان بالجديّة في

(٣) انظر : نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ٢٦ .

(٤) انظر : النحو العربي د . مازن المبارك ٨٠ .

البحث والتحري عن دقائق اللغة منساقين بالعصبية ، وان لم يكونوا جميعاً بميزان واحد . غير أن تلك العصبية أفادت في بذل الجهد في تقصي الحقائق العلمية ، وإغناء اللغة بالدراسات الوفيرة من لدن رجال المدرستين .

« وقد شمر الجميع عن ساعد الجد ونزلوا الميدان تسوقهم العصبية البلدية ، وكان حادي عيسهم في البصرة أبو عثمان المازني ، وأبو عمر الجرمي ، وأبو محمد التوزي ، وأبو علي الحرمازي ، وأبو حاتم السجستاني ، والرياشي والمبرد وغيرهم . وفي الكوفة يعقوب بن السكيت ومحمد بن سعدان ، وثعلب ، والطوال وغيرهم . وكثيراً ما جمعت الفريقين بغداد بين حين وآخر على تعصب كل لمذهبه ، وانتقال هذا التعصب لمن يشليعهما ، فكانت مناظرات ، وإقحامات تقض المضاجع ، وتحز في النفوس ، حتى تلاقيا أخيراً ، وتوطننا بغداد على ضغن في القلوب أذهبه تعاقب الايام ، وانقراض المتنافسين شيئاً فشيئاً » (٥) .

ومن المفيد أن نشير هنا الى أن الخلافات النحوية التي رافقت سير المناظرات دخلت ميدان التأليف ؛ فقد صنف بعض المهتمين من النحاة كتباً تناولت تلك المسائل التي جرى الخلاف فيها كابن كيسان في كتابه الموسوم بـ « المسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه الكوفيون والبصريون » (٦) ، وأبي البركات الانباري في كتابه « الانصاف في مسائل الخلاف » ، وأبي البقاء العكبري في كتابه « مسائل خلافة في النحو » .

كما احتلت المسائل الخلافية جزءاً من كتاب السيوطي « الأشباه

(٥) انظر : نشأة النحو ٣٥ .

(٦) انظر : الفهرست ٨١ .

والنظائر» (٧) فقد أتى فيه على ذكر اثنتين ومائة مسألة اختلف فيها ، وجمع في كتابه المذكور كثيراً من المناظرات النحوية واللغوية ، منها ما دار بين الخليل وسيبويه ، أو بين أبي حاتم السجستاني والتوحي ، أو ابن الأعرابي والأصمعي ، أو المازني وابن السكيت أو المازني والجرمي ، أو المازني والأخفش سعيد بن مسعدة وغيرهم (٨) . وسأأتي على بعضها خلال البحث .

والخلاف الذي تقصده في بحثنا هذا هو الذي أثير خلال المناظرات وقت المعاصرة ، لا الخلاف الذي أثير نتيجة الدراسات النحوية واللغوية في فترات متباعدة ، وصنفت فيه المصنفات التي تناولت بالنقد والتحليل دراسة الآثار الموروثة بعد زهاب أصحابها .

ومما لاشك فيه ان ما عرض خلال المناظرات من آراء كبار العلماء في المسائل اللغوية والصرفية المطروحة للبحث أعطى البحث اللغوي مردوداً إيجابياً . فقد دلت تلك المناظرات على قوة الملاحظة ودقتها في اختيار السؤال الموفق ، واتزاع الجواب الدقيق ، وربما فرض مواقف سلبية لدى الطرف المسؤول ونحن لايهمنا المجالي في هذه الحلبة بقدر ما نرجوه من فوائد مما كان يجري فيها .

فاذا كانت المناظرة بين عالين لامعين في الدراسات اللغوية صعب توقع الحاضرين النتيجة نظراً لأهمية المتناظرين ومكانة كل منهما العلمية في نفوس جمهور الحاضرين . قال ياقوت في ترجمة ثعلب : « قال لي أبو عمر الزاهد سألت أبا بكر بن السراج ، فقلت : أي الرجلين أعلم أثعلب أم المبرد ؟

(٧) أنظر : ٢ / ١٤٧ - ١٥٢ .

(٨) أنظر : الاشباه والنظائر ٣ / ١٥ - ٤٥ .

قال : ما اقول في رجلين العالم بينهما ! » (٩)

واذا ما عدنا الى بداية التجمع العلمي وجدناها قد قويت فيها المشاحنات واشتدت بين علماء المدرستين وبخاصة بين الكسائي وسيبويه ، فقد كان لمناظراتهما الساخنة أثر في إثراء اللغة ، وتعميق المفهوم المذهبي بين أنصار المدرستين ، فالكسائي بحق يعد المؤسس الحقيقي للمذهب الكوفي ببغداد فهو الذي « اعتمد للكوفيين فيها متكأً وسعى سعيه حتى كوّن من الكوفيين جبهة قوية ثبتت أمام الجبهة البصرية ، ووقفت منها موقف الند للند » (١٠) .

والمناظرات النحوية لم تكن دائماً كما تبدو لأول وهلة في تصوّرنا تبدأ بسؤال وتنتهي بجواب يقود الى السلب في أغلب الاحيان ، وان ما وجدناه من هذا القبيل في مراجعنا القديمة لا يعدو أن يكون على رأي يخالف مذهب السائل ، وليس خطأ كما تتصور قياساً على تصوّر السائل في تخطئة المسؤول ؛ فلقد ذكر المازني : « دخلت بغداد ، فألقيت عليّ مسائل ، فكنت أجيب فيها على مذهبي ويخطئونني على مذاهبهم » (١١) .

ويربط ابن هشام (١٢) بين كلام المازني وما جرى لسيبويه مع الكسائي في المسألة الزنبورية بقوله : « وهكذا اتفق لسيبويه رحمة الله عليه » . وتعد المسألة الزنبورية من أطرف المناظرات التي جرت بين سيبويه ونحاة الكوفة ببغداد بعدما شدد الرجال الى هناك في خلافة الرشيد ووزارة

(٩) انظر : معجم الادباء ٢ / ١٥٠ .

(١٠) انظر : نشأة النحو ٣٣ .

(١١) انظر : مغني اللبيب ١ / ٩١ .

(١٢) المصدر نفسه .

يحيى بن خالد البرمكي ، فقد اجتمع بالكسائي في دار الرشيد أو عند البرامكة ، أو في مجلس الأمين — على خلاف في ذلك — .

وقد اجتمع قبل ذلك بأصحاب الكسائي فساءلوه عن أمور كثيرة ، ثم تهيأت له المناظرة المشهورة مع الكسائي حول « كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي ، أو فإذا هو إياها » (١٣) .

وقد قال عنها عبد السلام هارون : « ويذكرون أن سيبويه أخفق في هذه المناظرة إخفاقاً مبلغ الظن أن الكوفيين افتعلوه ، إذ لم يكن اخفاقاً علمياً وإنما هو اخفاق مظاهره علمية ليس لها وجه من الحق ، أولها وجه من الحق كوفيٌ يخالف وجه الحق البصري » (١٤) .

كما قال عنها استاذنا الكبير علي النجدي فاحص (١٥) : « وتعد مناظرة سيبويه للكسائي أشهر مناظرات سيبويه كلها ، بل أشهر مناظرات النحاة قاطبة ، بما لقيت من دراسة العلماء ورواية الرواة ، فلا أعلم أن مناظرة ظفرت بمثل ما ظفرت هي به من ذلك ، لقد أكثروا فيها الخلاف ، وأطالوا عنها الحديث ، وجدوا في تخريجها والاحتجاج لها ، وأبوا إلا أن يدعوا فيها آثار العصبية للمدرستين ويجعلوها ميداناً آخر من ميادين الجدل المستعمر بينهما على تعاقب الاجيال ، فإذا أقوال متخالفة ، وآراء متضاربة ، يضل بينها الباحث ، ويخفى عليه وجه الصواب فيها » .

(١٣) أنظر المسألة في : مجالس العلماء ٨ - ١٠ ، وانباه الرواة ٣٤٨/٢ ، ووفيات الاعيان ٣ / ١٣٤ ، وتاريخ بغداد ١٢ / ١٩٨ ، والانصاف ٢ / ٤١١ ، والمفني ١ / ٨٨ والاشباه والنظائر ٣ / ١٥ وغيرها .

(١٤) أنظر مقدمة عبد السلام هارون للكتاب ١ / ١٧ .

(١٥) أنظر : سيبويه امام النحاة ١٠١ .

ونحن في تتبعنا ما كان يجري بين المتناظرين يجب أن نبعد عن اهتمامنا مكانة العلماء فنرفع ونحط قياساً على تلك المناظرات « فليس يصح في المفاضلة أن يحكم لامريء أو يحكم عليه بكلمة يقولها ، كائنة ما كانت قيمتها ، فإنَّ للمصادفة في هذا المجال عملاً لامراء فيه » (١٦) .

والمناظرة بعد هذا تحتاج الى عقل مدرك ، وسرعة خاطر ، وقدرة على الكلام مع التمكن من اللغة . ولا تحلو المناظرة الا بين النظيرين اللذين أوتيا حظاً من المعرفة يدركه من في المجلس وخارجه ، فقد تجري في جو اعتيادي على غير استعداد وتهين غير أن عناية المتناظرين بالدراسات النحوية واللغوية وتجاربهم الكثيرة في ذلك أمدتهم بسلاح ماضٍ يشهرونه متى شاءوا ، فإما نجاح يهز مشاعر أنصارهم ، وأما فشل يهوي بالآمال .

ومن يمعن النظر في اسباب المناظرات النحوية واللغوية ودعواها يجد ان الخلافات المذهبية بل والغرور احياناً لعباً دوراً كبيراً في ادارتها وحرفها عن مسارها الطبيعي المرسوم لها . فقد لا تحتاج بعض تلك المناظرات الى اكثر من سؤال او استفسار يوجهه شخص ما الى آخر طمعا في الجواب الشافي ، غير أن الاخير — ظناً منه بمبلغ علمه — لا يود الاجابة المباشرة بل الاجابة في مجلس يضم أشرف القوم ، وربما يكون صاحب المجلس اميراً أو وزيراً او الخليفة نفسه (١٧) .

وقد يحصل التشفي اثر مناقشة يغلب فيها أحد العلماء فيتسقط اخبار صاحبه حتى يظهر به في مسألة اخرى ، وربما يسر لسماع خطئه في غير

(١٦) المصدر نفسه ١٠٩ .

(١٧) أنظر مثلاً مناظرة أبي العباس ثعلب مع المبرد في دار محمد بن

عبد الله بن طاهر في مجالس العلماء ١١٥ .

هذا الباب ، كالذي حصل بين ثعلب والمبرد ^(١٨) .

ومن جهة أخرى يتحاشى بعض العلماء الحديث مع الانسداد اذا كانوا طويلي باع في اللغة خوفاً من الاخفاق ، فقد قال يونس بن حبيب : « وكانا — يعني عيسى بن عمر وابا عمرو بن العلاء — اذا اجتمعنا في مجلس لم يتكلم ابو عمرو مع عيسى بن عمر ، يعني لحسن انشاده وفصاحته » ^(١٩) . ولعل من أبرز المناظرات التي أظهرت مكانة العلماء وسعة مخزونهم اللغوي وتبسطهم في الرواية ، واحاطتهم بفنون الكلام تلك التي جرت بين المازني وابن السكيت ، وابن قادم وسعدان ، وابي عبيدة والرياشي والافخش ، والكسائي والاصمعي ، والكسائي واليزيدي ، وثعلب وابن كيسان ، والمازني والجرمي وغيرهم .

اما الموضوعات التي جرى حولها النقاش والمفاتشة فقد شملت معظم مسائل اللغة ، وقضايا النحو . وربما كان بيت من الشعر سببا في تنازع النحاة واللغويين في مجالس الخلفاء والامراء ، وامتحانا يختبر فيه العلماء كالذي أثير حول قول الشاعر :

أظلمم ان مصابكم رجلا أهدي السلام اليكم مظلمم ^(٢٠)

فقد كان هذا البيت سببا في اشخاص ابي عثمان المازني الى الوراق لاختلاف من كانوا في مجلسه فقال بعضهم : « ان مصابكم رجل ... » وقال بعضهم « رجلا » فقال ابو عثمان : أما يرى أمير المؤمنين ان الكلام

(١٨) انظر : مجالس العلماء ١١٩ .

(١٩) المصدر نفسه ١٥٧ .

(٢٠) انظر : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ٢٣٨ ومعجم الادباء

٢ / ٣٨٢ ، ووفيات الاعيان ١ / ٢٨٤ .

معلق حتى يقول « مُظلمٌ » ، فقال : صدقت • ثم احضر التوزي وكان في دار الواثق ، وكان ممن يقول : ان مصابكم رجل" ويظن ان مصابكم مفعول به ، ورجل خبره • فقال له المازني : كيف تقول : ان ضربك زيدا ظلم ، فقال التوزي حسبي ، وفهم •

ومن المناظرات التي سار فيها الجدل عقليا فلسفيا غير ذي جدوى سوى المحاجة بنفس الأدلة لردع الطرف الآخر ما دار بين الجرمي والقراء • فقد حكى أن أبا عمر الجرمي وأبا زكريا يحيى بن زياد القراء اجتمعوا وتناظروا ، فقال القراء للجرمي : أخبرني عن قولهم : « زيد منطلق » لم رفعوا زيدا ؟ فقال له الجرمي : بالابتداء ، فقال له القراء : ما معنى الابتداء ؟ قال : تعريته من العوامل • قال له القراء : فأظهره ، قال له الجرمي : هذا معنى لا يظهر ، قال له القراء : فمثله اذن ، فقال الجرمي : لا يتمثل ، فقال القراء : ما رأيت كاليوم عاملا لا يظهر ولا يتمثل ! • فقال له الجرمي : أخبرني عن قولهم : « زيد ضربته » لم رفعتم زيدا ؟ فقال : بالهاء العائدة على زيد ، فقال الجرمي : الهاء اسم فكيف يرفع الاسم ؟ فقال القراء : نحن لا نبالي من هذا ، فانا نجعل كل واحد من الاسمين اذا قلت « زيد منطلق » رافعا لصاحبه ، فقال الجرمي : يجوز ان يكون كذلك في « زيد منطلق » لان كل اسم منهما مرفوع في نفسه فجاز ان يرفع الآخر وأما الهاء في « ضربته » فهي محل النصب ، فكيف ترفع الاسم ؟ فقال القراء : لا نرفعه بالهاء وانما رفعناه بالعائد على زيد ، قال الجرمي : ما معنى العائد ؟ قال القراء : معنى لا يظهر ، فقال الجرمي : اظهره ، قال القراء : لا يمكن اظهاره قال الجرمي : فمثله ! قال : لا يتمثل ، قال الجرمي : لقد وقعت فيما فررت منه • فحكى انه سئل القراء بعد ذلك ، فقيل له :

كيف وجدت الجرمي ؟ فقال : وجدته آية • وسئل الجرمي فقيل له : كيف وجدت الفراء ؟ فقال : وجدته شيطانا (٢١) •

ومن المناظرات التي اتسمت بالهزل والعبث ما حكاه العسكري (٢٢) ؛ قال : « أخبرني ابي عن عسل ، عن المازني ، قال : دخلت الى الاخفش يوما وعنده ابو عمر الجرمي ، وقد سأله الاخفش عن قولهم : « كلم الرجل » لم كسرت الميم ؟ فقال : لا لتقاء الساكنين ، فقال له الاخفش : ومتى التقى ساكنان ؟ وكيف يلتقيان ؟ وهو يضحك والجرمي مبهوت ينظر اليه ، ثم أقبل الأخفش عليّ فقال : يا أبا عثمان لم كسرت الميم ؟ فقلت : لئلا يلتقي ساكنان • قال : اصبت ، قال المازني : وانما اراد الاخفش أن يعبت بالجرمي » •

وربما يقود المناظر صاحبه الى الوقوع في الخطأ والوهم دون أن يجره النقاش الى ذلك ؛ فقد روي أن أبا عمرو الشيباني وهم امام الاصمعي ، بعد ان قاده الاصمعي الى ذلك بلباقة وخداع ، اذ وضع يده على فرو كان الى جانبه ثم قال لابي عمرو : ما معنى قول مالك بن زغبة ؟ ! بضرب كآذان الفراء فُضْثُوْهُ

وطعن كإزاع المخاض تبثورها

فقال ابو عمرو : هي هذه الفراء ، فقال الاصمعي : يا أهل بغداد هذا عالمكم (٢٣) !

والمسألة مبنية على المغالطة لأن الفراء المقصود في البيت جمع الفراء

(٢١) انظر : الانصاف ١ / ٣٤ - ٣٥ ، ونزهة الالباء ١٤٥ .

(٢٢) انظر : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١١٣ .

(٢٣) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١٦٦ .

وهو الحمار الوحشي •

وحينما تخرج المناظرة عن الحد المألوف في النقاش وتقود الى الزلل
تعكس آثارا سيئة لدى من في المجلس، ويستقطب الفائز فيها في نظر الحاضرين
فلا يعبأ بفوزه ، ولا يجني ثمار الفوز الا من عزز انتصاره بخلق محمود
وسيرة تنال اعجاب الآخرين ، فما الذي جنّاه اليزيدي من فوزه على
الكسائي ؟ فقد قيل ان الكسائي واليزيدي قد اجتمعا عند الرشيد فجرت
بينهما مسائل كثيرة ، فقال له اليزيدي : اتجيز هذين البيتين :

ما رأيكما خرباً نقّسَ البيضة صقرُ
لا يكون العيرُ مهراً لا يكون المهرُ مهراً

فقال له الكسائي : يجوز على الاقواء وحقه « لا يكون المهر مهراً ،
مبتدئاً: أي لا يبلغه العير ، وضرب بقلنسوته الارض وقال: انا ابو محمد :
فقال له يحيى بن خالد : خطأ الكسائي مع حسن أدبه أحب الينا من
صوابك مع سوء أدبك ، أتتكني قدام أمير المؤمنين وتكشف رأسك !
فقال : ان حلاوة الظفر ، وعز الغلبة ، اذهبا عني التحفظ (٢٤) •

واذا كان الكسائي متزناً هادئاً خلال المناظرة السالفة ، فما باله يخرج
الآن عن طوره ، وامام اليزيدي بالذات ؟ ولم سكت اليزيدي بعد النبي
رأيناه منه فيما سلف ؟•

قال خلف : « أولمت وليمة فدعوت الكسائي واليزيدي فقال اليزيدي
للكسائي : يا أبا الحسن ، امور تبلغنا وحكايات تتصل بنا تكرر بعضها ،

(٢٤) انظر : الاشباه والنظائر ٣ / ٢٢٥ ومعجم الأدباء ٥ / ١٨٨ و
ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١٢٤ ومجالس العلماء ٢٥٥ ووفيات الاعيان
١٨٦ / ٦ ونزهة الالباء ٨٢ - ٨٣ •

فقال الكسائي : امثلي يخاطب بهذا ، وهل مع العالم من العربية الا فضل بصاقي هذا - ثم بصق - فسكت اليزيدي « (٢٥) .

والكسائي مع علمه بالنحو وتقدمه فيه على اقرانه من نحاة الكوفة والبصرة لا يدفع عنه ضعفه باللغة ورواية الشعر ، يعرف هذا حتى الخليفة هرون الرشيد ، فيفضل الاصمعي عليه في هذا الجانب ، فقد سأله الاصمعي وهما عند الرشيد عن قول الراعي :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما

ودعا فلم أرَ مثله مقتولا

فأجاب : كان محرما بالحج - فقال الاصمعي : فقله :

قتلوا كسرى بليل محرما فتولّى لم يتمتع بكفن

هل كان محرما بالحج ؟ فقال الرشيد للكسائي : يا علي ، اذا جاء الشعر فاياك والاصمعي ! قال الاصمعي : محرم : أي لم يأت ما يستحل به عقوبته ، ومن ثم قيل : مسلم محرم ، أي لم يحل من نفسه شيئا يوجب القتل ، وقوله « قتلوا كسرى محرما » يعني حرمة العهد الذي كان له في أعناق أصحابه (٢٦) .

أما في المناظرات النحوية ، فكما عرفنا ان كفة الكسائي هي الراجعة في تناظره مع الاصمعي ، وربما كان تفوق الاصمعي في رواية اللغة عليه

(٢٥) انظر : انباه الرواة ٢ / ٢٦٤ .

(٢٦) انظر : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١٢١ - ١٢٢

ومجالس العلماء ٣٣٦ - .

ونزهة الالباء ١١٣ - ١١٤

ووفيات الاعيان ٣ / ١٧١ .

سببا من أسباب اعتماده اسلوبا قاسيا معه أحيانا ، وبخاصة خلال المناقشات التي يجد نفسه فيها متفوقا على صاحبه ، فقد جرت بينه وبين الأصمعي بحضرة الرشيد هذه المناظرة حينما أنشد :

أنى جزوا عامرا سوءى بفعلهم
أم كيف يجزونني السوءى من الحسن
أم كيف ينفع ما تعطي العلوق به
رئمان أنف اذا ما ظنَّ باللبن (٢٧)

فقال الأصمعي : انما هو « رئمان أنف » بالنصب . فقال له الكسائي : اسكت ما أنت وذاك ! يجوز رئمان أنف ، ورئمان أنف ، ورئمان أنف بالرفع والنصب والخفض . اما الرفع فعلى الرد على ما لأنها في موضع رفع ينفع فيصير التقدير : أم كيف ينفع رئمان أنف . والنصب بتعطي ، والخفض على الرد على الهاء التي في به .

... فسكت الأصمعي . ولم يكن له علم بالعربية ، وكان صاحب لغة لم يكن صاحب اعراب .

وما قلناه عن علم الكسائي بالنحو وضعف الأصمعي به نقوله عن علم الأصمعي باللغة والرواية وضعف الكسائي بها اذ لو لم يكن الكسائي كذلك لما أضطر الى مهادنة الأصمعي بحضرة الرشيد (٢٨) .

ولعداوة الصنعة - مع ما فيها من معطيات قيمة - أثر غير محمود في تلك المناظرات ؛ فكل عالم في النحو أو اللغة من علماء البصرة أو الكوفة كان يرى في نفسه مالا يمكن أن يراه في غيره ، وان لم يكونوا جميعاً

(٢٧) أنظر : أمالي الزجاجي ٥١ ، ومعجم الادباء ٥ / ١٩١ .

(٢٨) أنظر : أخبار النحويين البصريين ٥٩ ، وانباء الرواة ٢ / ٢٧٢ .

بميزان واحد ، فلكل ادعاؤه وتبججه ، مصيبا او مخطئا ، جادا أو منفعلا .
وقد وجدنا مثل هذا ممثلاً في شخصية الكسائي ، والأصمعي ، واليزيدي
بأجلى صوره • وهاك نموذجاً لما كان يجري بين العلماء غير النماذج التي
أسلفنا القول فيها : —

حضر الكسائي واليزيدي مجلس الرشيد ، فسألهما عن قصر « الشراء »
ومدّه ، فقال الكسائي : « مقصور لا غير » ، وقال اليزيدي : « يقصر
ويمد » فقال الكسائي : من أين لك ؟ فقال اليزيدي : من المثل السائر :
« لا يفتّر بالحرّة عام هداها ولا بالأمة عام شرائها » فقال الكسائي : —
« ما ظننت أن أحداً يجهل مثل هذا » فقال اليزيدي : « ما ظننت أن أحداً
يفتري بين يدي أمير المؤمنين مثل هذا » (٢٩) •

فقد بان لنا من المناظرة أن النحاة واللغويين كثيراً ما جنحوا بالمناقشة
عن طريقها السليم الى طريق المغالطات ، والمناوشات التي تقود الى التبذل
وسقط الكلام ، وهي لاتعدو الامور الشخصية التي أوجت بها اليهم عداوة
الصنعة • وحينما تبني المسألة المتناظر فيها على المغالطة يخفى الصواب فيها
على العالم ، فلا يبين له مقدار خطئه ، فيتندر به ، وبخاصة اذا كان كثير
الاعتداد بنفسه ، كالذي حصل لابي عمر الجرمي مع الأصمعي (٣٠) في
البيت المشهور :

قد كنّ يخبأن الوجوه تستراً فالآن حين بدأن للنظار
وتخفّ وطأة المناظرة أحياناً فلا تكون صادرة عن انفعال شخصي أو
قصد الإحراج والتفريع كالذي حدث بين المازني وابن السكيت ، فرغم

(٢٩) انظر : تاج العروس « شرى » ١٠ / ١٩٦ •

(٣٠) انظر : مجالس العلماء ٣٠٦ •

المرارة التي عانى منها ابن السكيت من المازني حينما سأله — وهما بحضرة المتوكل — ما وزن « نَكْتَل » وقد أخطأ فيها ابن السكيت مرتين ، لم يكن المازني بالمتبجح المتعالي على صاحبه — وحينما عاتبه ابن السكيت بعد خروجهما من المجلس قائلاً : « بالغت اليوم في أذائي » (٣١) أو « ويحك ما حفظت الود ، خجلتني بين الجماعة » (٣٢) كان جواب المازني له : « لم أقصدك بشيء مما جرى ، وإنما مسألة كانت قريبة من خاطري فذكرتها » (٣٣) .

والمناظرات بعد قد أعطت دراسة اللغة والنحو أهمية كبرى في بغداد وخلال فترة التحول الفكري وامتزاج الثقافات ، وتبته المفكر العزبي الى ما يحيطه من معارف الامم الاخرى كالفرس واليونانيين — فكانت أداة المناظر ومادته الأولى مقدار ما أوتي من حظ وافر في الأخذ من تلك الثقافات ببراعة ، ودقة ملاحظة ، وربما مكابرة أحد الفريقين « فكانت المكابرة عند الكوفيين في مقابل المجادلة القائمة على قوة العارضة وفلسفة الكلام عند البصريين » (٣٤) .

ولعل جنوح الكوفيين الى المكابرة وعنتهم في ملاقة البصريين ببغداد قد أثر تأثير سلبياً على بعض البصريين فارتضوا البقاء في البصرة مفضلين إياها على بغداد ، لآخوفاً من الكوفيين ولكنهم أرادوا الابتعاد عن مكابرتهم وتملقهم الخلفاء ، وربما عاد بعضهم من بغداد الى البصرة بعد الذي شاهدوه من أمر الكوفيين هناك كأبي حاتم السجستاني والرياشي .

أما المبرد فإنه فضل البقاء في البصرة ، ولم ينهب الى بغداد إلا بعد

(٣١) انظر : انباه الرواة ١ / ٢٥٠ .

(٣٢) انظر : مجالس العلماء ٣٠٠ .

(٣٣) انظر : انباه الرواة ١ / ٢٥٠ .

(٣٤) انظر : رواية اللغة ٢٧٧ .

استخدامه من قبل المتوكل بعد اختلافه الفتح بن خاقان حول قراءة الآية : « وما يشعركم أنها إذا جاءت » حيث قرأها المتوكل بفتح الهمزة ، وقد احتكما الى يزيد بن محمد المهلبى فخاف أن يسقط أحدهما فقال : « ما أعرف أحداً يتقدم فتىً بالبصرة يعرف بالمبرد » فكتب المتوكل الى واليه في البصرة يستحثه على إشخاص المبرد الى سامراء .

ولم يغلب المبرد في اعطاء احدهما الحق بل حاول ارضاء الرجلين فعاتبه الفتح قائلاً : « يا بصري أول ما ابتدأتنا به الكذب ، كيف قلت لأمر المؤمنين ان الصواب بالفتح ؟ قال : أيها الوزير لم أقل هكذا ، وإنما قلت : أكثر الناس يقرؤها بالفتح ، وأكثرهم على الخطأ وإنما تخلصت من اللائمة وهو أمير المؤمنين » (٣٥) .

وقد علق الشلقاني (٣٦) على فطنة المبرد بقوله : « وهنا تبرز صفة الرجل البصري المتسلح بالحيلة » .

ثم غادر المبرد سامراء بعد مقتل المتوكل ، واستطاع أن يشق طريقه إلى هناك - أي بغداد - ويقيم أركان المدرسة البصرية ، وقصته مع الزجاج مشهورة (٣٧) ، اذ استطاع أن يجذبه اليه من حلقة ثعلب .

ولعل لاختلاف كل من البصريين والكوفيين الى بغداد والتقاء أكثرهم عند نفس المشايخ الذين خلطوا المذهبين أثر في خفة حدة العصبية بالتدرج . يظهر ذلك بوضوح لدى الزجاج (٣١٦ هـ) وابن السراج (٣١٦) وابي بكر بن الخياط (٣٢٠) وعبد الرحمن الزجاجي (٣٣٧) وغيرهم . فقد

(٣٥) انظر : طبقات الزبيدي ١١٠ .

(٣٦) انظر : رواية اللغة ٢٤٦ .

(٣٧) انظر : طبقات الزبيدي ١١٨ .

أفاد هؤلاء في إخفاته حدة التطرف عند تلامذتهم بما قدموه لهم من دروس تجمع بين نحو البصرة ونحو الكوفة ، وما أشاعوه في مصنفاتهم من آراء مشايخ المدرستين دون مغالاة في التعصب لإحدهما على الأخرى ، كالذي نجده في كامل المبرد ، وأما لي الزجاجي ، ونوادير أبي زيد ، وغيرها •

نخلص من هذا كله الى أن المناظرات النحوية واللغوية اضطرم أوارها وعلا صخبها إبان القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وكانت تهدف الى :

١ — التوصل الى إقرار الحقائق العلمية التي كانت تتبناها إحدى المدرستين من قبل رجال المدرسة الأخرى •

٢ — إظهار الطرف الثاني بمظهر المغلوب على أمره بعد اللجوء الى استخدام شتى الوسائل بما فيها الحيلة ، والخداع في كسب نتائج المناظرة •

٣ — نيل الخطوة والمكانة اللائقة لدى الأمراء والولاة والخلفاء ، ومن أجل نشر أفكار المذهب الفلاني ، وتوهين حجج الآخر •

ومن خلال تتبعنا لتاريخ النحو العربي وجدنا أغلب الخلفاء يشجعون مثل تلك المناظرات ، وقد يتدخلون في منح ثقتهم لأحد الفريقين المتصارعين وإن أعيتهم الحجج •

ومهما يكن من أمر تلك المناظرات فإنها أدت غرضاً علمياً نبيلاً في نقدها بعض القواعد النحوية والمسائل اللغوية ، فجادت بالنتائج التي أضحت مصدراً لدراسة اللغة وتقعيد النحو وتأسيس قواعده •

مصادر البحث

- ١ — اخبار النحويين البصريين — السيرافي — تحقيق طه محمد الزيني وعبد المنعم خفاجي — مطبعة البابي الحلبي ١٩٥٥ •
- ٢ — الأشباه والنظائر — السيوطي ط ٢ مطبعة دار المعارف العثمانية — حيدر آباد — الدكن ١٣٦٠ هـ •
- ٣ — الأمالي — الزجاجي تحقيق عبد السلام محمد هارون ط ١ مطبعة المدني ١٣٨٢ هـ •
- ٤ — إنباه الرواة على إنباه النحاة — القفطي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم — مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ •
- ٥ — الإنصاف في مسائل الخلاف — ابن الأنباري تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط ٣ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥ •
- ٦ — تاج العروس — مرتضى الزبيدي — المطبعة الخيرية بجمالية مصر ١٣٠٦ هـ •
- ٧ — تاريخ بغداد — الخطيب البغدادي — مطبعة السعادة بمصر الطبعة الأولى ١٩٣١ •
- ٨ — رواية اللغة — د • عبد الحميد الشلقاني — دار المعارف بمصر ١٩٧١ •
- ٩ — سيبويه إمام النحاة — علي النجدي ناصف — مطبعة لجنة البيان العربي •
- ١٠ — شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف — العسكري — تحقيق

- عبد العزيز أحمد — البابي الحلبي ط ١. ١٩٦٣ •
- ١١ — طبقات النحويين واللغويين — الزبيدي ط ١ — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٥٤ •
- ١٢ — كتاب سيبويه — تحقيق عبد السلام محمد هارون — مطابع دار القلم ١٩٦٦ •
- ١٣ — الفهرست — ابن النديم — مكتبة خياط — بيروت ١٩٦٤ •
- ١٤ — لسان العرب — ابن منظور — دار صادر ١٩٥٦ •
- ١٥ — مجالس العلماء — الزجاجي — تحقيق عبد السلام محمد هارون — مطبعة حكومة الكويت — الكويت •
- ١٦ — معجم الأدباء — ياقوت الحموي — مطبعة هندية بالموسكي بمصر ١٩٢٤ •
- ١٧ — مغني اللبيب — ابن هشام — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد •
- ١٨ — النحو العربي — د • مازن المبارك — ط ١ دمشق ١٩٦٥ •
- ١٩ — نزهة الألباء — ابن الأنباري — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — مطبعة المدني •
- ٢٠ — نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة — محمد الطنطاوي ط ٢ ١٩٦٩ •
- ٢١ — وفيات الأعيان — ابن خلكان — تحقيق د • احسان عباس — مطبعة الغرب — بيروت •